

مجلة المجمع العلمي

مجلة فصلية انشئت سنة ١٣٦٩هـ - ١٩٥٠م - الجزء الرابع - المجلد الواحد والخمسون

١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م



مجلة المجمع العلمي

الفهــرس

الموضوع | الصفحة

الدكتور نوري جعفر
وجهوده اللغوية وآراؤه التربوية

الدكتور
احمد جواد العتابي
كلية التربية/الجامعة المستنصرية

الملخص

يتضمن البحث تمهيداً وأربعة مباحث وخاتمة: أما التمهيد فيشمل تعريفاً عاماً بالدكتور نوري جعفر/حياته ، ودراسته ، وأهم مؤلفاته. أما البحث الأول فقد عرض لتفسير نشأة اللغة من الناحية الفسلجية وعلاقة اللغة بالحواس. أما المبحث الثاني فقد عرض لموضوع الأصوات وما يتصل بها من مباحث تخص جهاز النطق ، وتكوين الأصوات وتطورها ، أما المبحث الثالث فيعرض لموضوع المعنى وتفسيره من الناحية الفسلجية ، وكذلك يعرض للكلمات بوصفها اشارات وعلامات ورموزاً كتابية من جهة ، وبوصفها مادية محسوسة من جهة أخرى ، ومن ثم علاقة المعنى بها من حيث كونه لا مادياً أو تجريدياً. كما يناقش هذا المبحث علاقة المعنى بالفكر من خلال إحصاء تعريفات وردت في كتاب اللغة والفكر تعرض لتعريف الكلمة وكذلك تعريف المعنى.

أما المبحث الرابع فيعنى بجهود الدكتور نوري جعفر التربوية وآرائه في المنهج والطريقة والمعلم. ثم الخاتمة.

المبحث الأول

١- تفسير نشأة اللغة

ظل موضوع تفسير نشأة اللغة البشرية يشغل بال العلماء سواء أكانوا من داخل اللغة أم من خارجها ، إلى يومنا هذا.

وقد قيل في نشأتها نظريات مختلفة ، منها النظرية التوقيفية التي ترى أن اللغة توقيف من عند الله ودليلهم في ذلك قوله تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) البقرة/٣١ [١].

ومنهم من قال أنها مواضعة واصطلاح وهو الرأي الغالب. ومنهم من ذهب إلى أنها من الأصوات المسموعات كدوي الريح ، وخرير الماء وقد سميت بنظرية محاكاة[٢] أصوات الطبيعة[٣]. ومنهم من ذهب إلى أن أصل اللغة كان محاكاة للأصوات معانيها ، ومفادها أن جرس الكلمة يدل على معناها[٤]. ومنهم من يرى أن اللغة في أول نشأتها كانت أصواتاً تعجبية انفعالية تعبر عن خوف أو حزن أو فرح[٥]. ومنهم من يربط نشأة اللغة بالاستجابة الصوتية للحركات العضلية أي الأصوات العفوية التي تصدر عن الانسان عندما يمارس عملاً عضلياً ، أي أنه يتفوه بمقاطع صوتية ترافق ما يبذله من جهد[٦]. وبسبب هذا الأختلاف الكبير في نشأة اللغة اصبح الوصول إلى

---

(١) فقه اللغة/الدكتور عبد الحسين المبارك:١٤.

(٢) اللغة والنحو/الدكتور حسن عون:٩.

(٣) نظريات في اللغة/انيس فريحة:١٧.

(٤) دراسات في فقه اللغة/صبحي الصالح:١٤١.

(٥) في علم اللغة العام/عبد الصبور شاهين:٧٢.

(٦) نظريات في اللغة:٢٠.

رأي قاطع أمراً مستحيلاً(وكل ما يمكننا الوصول إليه لـــن يكون إلا ضرباً مـــن الاجتهاد لا يخرج عـــن حيز التخمين أو الافتراض ، حتى أن الجمعية اللغوية فـــي باريس قررت سنة ١٨٧٨ منع تقديم أي ابحاث في هذا الموضوع)[٧]. لكن الدكتور نوري جعفر يرتبط تفسير اللغة عنده بالاساس الفسلجي والبيئة الأجتماعية والثقافية أولاً ، ثم الأساس السيكولوجي ثانياً ، إذ أن نشأة اللغة عنده مرتبطة بتطور اعضاء النطق لدى الانسان القديم ، أنظر إليه يقول (نشأت عنده (الانسان القديم) عضلات خاصة بالنطق بالأصوات البدائية على هيئة كلمات مبهمة تتميز من بعض الوجوه من أصوات الحيوانات الراقية ، هذه الأصوات تكون مبهمة ولاتحمل فكراً معيناً ، بل هي تعبير عن أشياء مادية محسوسة وعن حالات انفعالية خاصة ، ثم بتطور الأعضاء الخاصة ولاسيما العضلات المسؤولة عن الاستجابات الحركية المتعددة والفورية تحولت الأصوات المبهمة الأخرى بالتدريج وبمرور الزمن الطويل إلى إشارات ، هذه الإشارات تدل على اشياء بيئية محسوسة وتصف حوادث واقعية متفرقة ، وبهذه الطريقة نشأت عند الانسان إمكانية (إعادة صوغ) بعض الإشارات أو التنبيهات المنعزلة التي يتركها في ذهنه هذا الشيء المحسوس أو ذاك ، وقد نتج عن كل ذلك إمكانية القدرة على تعبيرات تجمع بين المميزات المحسوسة وشبه الفكرية للأشياء والحوادث ، ثم بمرور الزمن اصبحت بالتكامل النسبي المتواصل قادرة على التعبير عن نفسها على هيئة انجاز مجازي)[٨]. ثم

---

(٧) فقه اللغة في الكتب العربية/دكتور عبده الراجحي:٧٧.

(٨) اللغة والفكر:٤٧.

يربط كل ذلك بفسلجة الدماغ ، إذ يقول (وكان للمحلل المخي الحركي وهو المسؤول عن حركات عضلات الكلام المتحدث به أو المكتوب أثر كبير في إبراز الوظيفية الجديدة إلى حيز الوجود ، وبعد ذلك أولى مراحل التجريد والتعميم)[٩]. ثم تأتي المرحلة الثانية التي نتجت (بسبب مواصلة استعمال المحلل الحركي زمناً طويلاً من حياة الانسان ، إذ أدت إلى نشوء مواقع متخصصة أو مراكز مخية مركبة وحسية تكون مسؤولة عن النطق بالكلمات البدائية (تحريك عضلات الحنجرة واللسان والشفتين) وبذلك تبلورت بواكير أو براعم الصوت اللغوي Voice بمعناه الانساني المعروف أو الكلام المنمق)[١٠]. كما رافق ذلك تطور متواصل في المراكز المخية المسؤولة عن السمع ، والبصر ، والنطق وبمرور الزمن حصل تحسن متواصل في أدوات الكلام الفسلجية ، وفي الكلام نفسه الذي تحول من إشارات هيروغيلفية ومسمارية إلى حروف وكلمات ، ونشأت بالتدريج مع تلك الكلمات ارتباطاتها الصرفية والنحوية البدائية. ثم بتطور حياة الانسان البدائي نشأت قدرة مخية على الاحتفاظ بمعاني الكلمات أو بالصورة الذهنية الناجمة عنها ، وتعد هذه أهم المراحل التي تتسم بالتجريد والتعميم[١١].

ويمكن تلخيص ما سبق على النحو الآتي:

١- القدرة على الكلام لم تحدث فجأة بل مرت بسلسلة من التحولات الجسمية والاجتماعية.

---

(٩) اللغة والفكر:٤٧.

(١٠) نفسه:٤٨.

(١١) نفسه:٤٩.

٢- هذه القدرة تعرضت لعملية تطور مخية لاحقة منذ نشوء الانسان العاقل.

٣- يتبع ذلك حدوث تكامل في جهاز النطق ، ولاسيما في الحبال الصوتية والعضلات المرتبطة بها ، واتساع تجويف الفم الذي سهل حركة اللسان وتحول عظم الفك الأسفل أو الحنك من هيئته المستطيلة إلى هيئته المدورة وفي تضاؤل حجم الأنياب[١٢].

٤- ثم حدوث تطور بين المراكز المخية اللغوية الثلاثة (الحركي ، والسمعي ، والبصري) ومعه جهاز النطق (الحنجرة واللسان والشفتان والحبال الصوتية) من جهة وبين محتوى اللغة (المعاني التي تحملها الرموز اللغوية المتحدث بها والمقروءة) من جهة أخرى[١٣] ، ويمكن تلخيص هذه المراحل بالمخطط الآتي:

أصوات بدائية مبهمة ← إشارات تدل على أشياء محسوسة ← إعادة صوغ الإشارة في الذهن ← مرحلة التجريد والتعميم الأولى ← تطور في المخ (مناطق مخية مسؤولةِ عن النطق بالكلمات،الأصوات الحسية) المرحلة الثانية ← من التجريد والتعميم ، بوادر الصوت اللغوي (Voice) مرحلة ← الاحتفاظ بمعاني الكلمات أو بالصورة الذهنية ـ وهـذه هـي المرحلة الثالثة مـن مراحـل نشوء عملية التجريد والتعميم ـ وقـد تبين بعد اكتشاف المنظومتين المخيتين الأولى والثانية

---

(١٢) نفسه:٤٢.

(١٣) نفسه:٤٢.

أن اللغة تستند فسلجياً إلى المنظومة الإشارية وهي المسؤولة عن الحواس كما يستند البناء إلى الارض إذ أن المنظومة الإشارية الثانية وهي المسؤولة عـن اللغة لا تتعامل بشكل مباشر مـع الإشارات الحسية ، الأمر الذي يؤدي إلى اتساع معاني الإشارات الحسية اتساعاً مذهلاً بفعل نشوء إحساس جديد للنشاط العصبي الأعلى عند الانسان وهو تجريد إشارات المنظومة الحسية عن ارتباطاتها الواقعية وتعميمها.(١٤)

ويضيف الدكتور (وبمرور الزمن اخذت الكلمات تعبر عن جميع الإشارات الحسية وتحل محلها وتستثير الاستجابات الفسلجية التي تستثيرها مسمياتها ، فالألفاظ اللغوية التي تعبر عن نفسها على شكل رموز صوتية أو مكتوبة أوجدها الانسان نفسه في مجرى تاريخه الطويل لتنظيم حياته الاجتماعية.

معنى هذا أن قيمة الرموز اللغوية الصوتية والسمعية بوصفها اشارات تكمن في معناها أو دلالتها أو ما تشير إليه ، وليس قيمتها في كيانها الرمزي المادي المنطوق والمقروء.(١٥)

يتبين من كل ذلك أن هذه النظرية القائمة على ربط الوظائف اللغوية بالوظائف البايولوجية في الدماغ البشري من خلال الكشف عن طبيعة العلاقة القائمة بينهما ، إن هذه النظرية هي الأكثر علمية وإقناعاً في تفسير نشأة اللغة البشرية ، إذ إنها تتفق تماماً مع علم اللسانيات البايولوجي وتوجهاته في تفسير اللغة ودراستها واستخدام ذلك في تطوير تقنيات التعلم والتعليم للغات البشرية.

---

(١٤) اللغة والفكر/٦٠.

(١٥) نفسه:٥٦.

٢- علاقة الحواس باللغة

إن التفسير الذي يحرص على تأكيده الدكتور نوري جعفر ، هو أن اللغة البشرية لم تصل إلى ما وصلت إليه من تكامل في التجريد والتعميم إلا بفضل العلاقات الفسلجية التي تربط الحواس واعضاءها والمراكز المخية ووظائفها من جهة والبيئة الطبيعية والاجتماعية من جهة أخرى. يقول الدكتور جعفر (سار تطور أعضاء الحس باتجاهين رئيسين متكاملين هما: ميل تلك الأعضاء نحو التخصص المتزايد الأدق والأضيق مما أدى إلى تكامل وظيفتها المخية وتهذيب قدرتها على التفكيك أو تحليل البيئة الخارجية إلى عناصرها الأولية ثم تركيبها وإعادة صياغتها. أما الأتجاه الآخر ، فمن الممكن أن يوصف بأنه نزعة نحو إحداث التوافق بين أعضاء الحس المختلفة من جهة ، وبينها مجتمعة وبين التلبيات الحركية الملائمة من جهة أخرى.[١٦]

فحاسة السمع لها اهمية كبيرة في تعلم اللغة إذ لولاها لأستحال على الانسان أن يرتبط بالأخرين بالتحدث والإصغاء ، إذ أن حاسة السمع جهاز فسلجي حساس باستطاعته أن يتأثر بأدنى حد من الضغط الذي يحدثه فيه الهواء الملامس الذي يحمل الأمواج الصوتية الخافتة .. فالكلمات المسموعة ينقلها العصب المخي السمعي إلى المركز اللغوي المختص بالكلمات المسموعة.[١٧]

وتتجلى أهمية حاسة السمع عند فقدانها منذ الطفولة الأولى إذ يتعذر تعلم الكلام ، ومن ثم يحصل الإنعزال لفقدان الأتصال عن طريق

---

(١٦) اللغة والفكر/٨.

(١٧) نفسه:٢٣.

اللغة بالبيئة المحيطة. أما حاسة الشم وعضوها الأنف فأن منخري الأنف يمارسان وظائف التنفس والشم والرنين في أثناء الكلام لأن الفتحات الأنفية والأنفية البلعومية تقوم بدور (فجوات الرنين) التي يمر عبرها الصوت في أثناء الكلام. أما حاسة البصر وعضوها العين فلها أهمية كبيرة في نقل إشارات الأشياء المتحركة والراكدة إلى الدماغ ليتخذ الموقف الملائم.

المبحث الثانـــي

الأصـــوات

تعرض كتب الأصوات عند تناولها للأصوات ، لثلاثة علوم ، هي: علم الأصوات الأوكوستيكي الذي يعنى بدراسة الخصائص المادية أو الفيزيائية لأصوات الكلام في أثناء انتقالها من المتكلم إلى السامع.(١٨) وعلم الأصوات السمعي ، وهو ذو جانبين: جانب عضوي أو فسيولوجي ، وجانب نفسي ، أما الأول فوظيفته النظر في الذبذبات الصوتية التي تستقبلها أذن السامع. ويركز الجانب الثاني جهوده على البحث في تأثير هذه الذبذبات ووقعها على أعضاء السمع (الداخلية منها بوجه خاص) ، وهو أحدث فروع علم الأصوات (١٩). والنوع الثالث هو علم الأصوات النطقي وهو أقدم فروع علم الأصوات ، إذ يدرس نشاط المتكلم بالنظر في أعضاء النطق. ثم بأستخدام الوسائل والأدوات الفنية والالات والأجهزة في الدرس الصوتي ظهر ما يسمى بعلم الأصوات التجريبي أو الآلي أو المعملي.(٢٠) وقد عرض علماء الصوت لكل ما يتصل بالصوت البشري من حيث صفته الفيزيائية ، ومن حيث وصف

---

(١٨) دراسة الصوت اللغوي/٣ وعلم الأصوات/٤٨٠.

(١٩) علم الأصوات/٤٢ ودراسة الصوت اللغوي/٢٧.

(٢٠) علم الأصوات/٥٥.

جهاز أعضاء النطق ، ومن حيث استقبال الصوت وأعضاء السمع (الإذن) وأقسامها الخارجية والداخلية. إذ وقفوا عند هذا الحد ولم يتجاوزا ذلك ، إذ إن البحث في تتبع الصوت الذي تستقبله الاذن البشرية وانتقاله إلى الدماغ أو مناطق محددة منه ، لم يزل محصوراً فـــي دائرة ضيقة هـــي دائرة المتخصص تخصصاً دقيقاً والمؤهلين تأهلاً مناسباً في فسلجة الجهاز السمعي ، ويضيف الدكتور كمال بشر (ومن النادر أن نجد بحثاً صوتياً عاماً أو بحثاً لغوياً عاماً يعرض لهذا العلم ومشكلاته)[٢١]. ويقرر الدكتور أحمد مختار عمر (أنّ تعرّفَ العقل على الأصوات الكلامية وتفسيرها ما يزال بعيداً عـــن منال الفحص المعملي ... ولهذا فأن معلوماتنا في هذا الموضوع ما تزال تخمينية حتى الآن)[٢٢]. ويرى فندريس أن الصور السمعية الداخلية التي يستقبلها السامع ليست لها أي قيمة إلا على أساس أن هذا السامع لديه القدرة على تحويلها إلى صور نطقية فعلية .. نعم إن دراسة دقيقة لمراكز الأعصاب في الجانبين (المتكلم والمخاطب) تمكننا ولاشك من معرفة هذه الحدود والتمييز بينها ، ولكن هذه الدراسة ليست من مجال علم الأصوات **Phonetics**[٢٣] وفي هذا الصدد يرى رومان ياكوبسون أن النظرة إلـــى الرابطة اللغوية للظواهر الفسلجية مفقودة أكثر فأكثر[٢٤]. إلا أن التفسير الفسلجي يبدأ من حيث أنتهى علم الأصوات بفروعه الثلاثة أو الأربعة. إذ يتتبع الصوت بوصفه إشارة حسيّة عندما

---

(٢١) علم الأصوات/٤٣.

(٢٢) دراسات الصوت اللغوي/٣٠.

(٢٣) ينظر :اللغة ١٩ وعلم الأصوات:٤٦.

(٢٤) محاضرات في الصوت والمعنى/٣٦.

يستقبلها الدماغ أو بعبارة أدق المراكز المخيّة اللغويّة ، يقول الدكتور نوري جعفر (ثبت علمياً في الوقت الحاضر أن الأصل الجسمي الذي تستند إليه اللغة ((المراكز المخية اللغوية وجهاز النطق والسمع والبصر)) هو نتاج عملية تطور طويلة الأمد من الناحيتين البايولوجية والأجتماعية على حد سواء. فجهاز النطق المتخصص بإخراج الكلام المنمق والأدوات العصبية والعضلية المعقدة الموجودة فيه ، وكذلك المراكز المخية اللغوية وجهاز السمع والبصر ، من ناحية ارتباطهما بالكلام المسموع والمقروء ، ناهيك بالكلام نفسه من ناحية محتواه ، لم تصل جميعها إلى مستواها الحاضر المتكامل دفعة واحدة بل أخذت بالتحسن المتواصل المتدرج بمرور الزمن الطويل ، وبتوافر البيئة الملائمة))(٢٥).

وقد عرض البحث الفسلجي لجهاز النطق موضحاً وظيفة كل عضو مضيفاً ملاحظات جديدة مهمة لم يعرض لها علم الأصوات ، وسنعرض لهذه الملاحظات كما وردت في كتاب اللغة والفكر ، يقول الدكتور نوري جعفر (وقد ثبت علمياً في الوقت الحاضر أن تطور حافة الحنك هو أول مستلزمات نشوء القدرة على النطق بالكلمات من الناحية التشريحية. وهو الذي ينفرد به الانسان العاقل ليس بالموازنة بالحيوانات الراقية ، فحسب وإنما ايضاً بالموازنة بأنواع الانسان المنقرضة ، ثم يضيف قائلاً (وهناك عوامل فسلجية كثيرة أخرى مهدت للقدرة على النطق بالكلمات عند الانسان يأتي في مقدمتها تحول الفك الأسفل إلى هيئة قوس بعد أن كان مستطيل الهيئة

---

(٢٥) اللغة والفكر/٤٢.

وزيادة حجم تجويف الفم مما سهل حركة اللسان بطلاقة وكذلك حرية حركة الفك الأسفل بأتجاه جديد مما أدى إلى تقلص الأنياب)[٢٦].

هذه الملاحظات المهمة لا نجدها في كتب علم الأصوات وإنما نجدُ عرضاً عاماً ووصفاً عاماً لأعضاء جهاز النطق.

إن جهاز النطق من الناحية الفسلجية مرتبط بالمركز المخي الحركي للكلام إذ أنه يرتبط بالحنجرة بحبالها الصوتية التي تحصل فيها الذبذبات عن طريق الهواء الذي تقذفه الرئتان ، وكذلك التجاويف التي تقع في أعلى الحنجرة ، كالتجويف البلعومي ، والتجويف الفمي ، التي تقوم بدور أجهزة الرنين التي تضخم مختلف النغمات الصوتية وبذلك تعطي للصوت طابعه الخاص بكل فرد)[٢٧].

إن هذا التفسير لا نجده في كتب الأصوات التي ظلت بعيدة عن الأخذ بالمعطيات الفسلجية التي فتحت آفاقاً واسعة لتفسير حدوث الصوت من حيث النشوء والأرتقاء. ومن هذه المعطيات ما ثبت من أن الصوت (Voice) لا يحدث بفعل ذبذبات الحبال الصوتية وحدها ، وإنما أيضاً وبالدرجة الأولى والأهم بفعل تكثيف عمود الهواء الذي تحدثه تلك الذبذبات فوق الحبال الصوتية في الأساس ، وتخفيفه أيضاً ، وقد ثبت أيضاً أن اختلاف عمود الهواء هذا عن نظيره الذي يحدث بفعل ذبذبات صوت الصافرة ، هو المسؤول عن الفرق بين الصوتين لأن ذبذباته تكون مرنة وتسير بأتجاه تيار الهواء الطولي بخلاف ذبذبات صوت الانسان تكون عرضية[٢٨].

---

(٢٦) اللغة والفكر/٥٨.

(٢٧)نفسه: ٦٤.

(٢٨) نفسه:٦٤.

ومن التفسيرات التي تقدمها النظرية الفسلجية ، علاقة المشي ، وأستعمال اليد ، وتطور الحواس السمعية والبصرية ، وانتصاب القامة وتطور القدمين واليدين ولاسيما موقع الإبهام من أصابع اليد ، وإتساع وظائفه ، بنشأة الكلام وتطوره. يقول الدكتور (أي أن قدرة الانسان على الكلام ترتبط بايولوجياً كما يرتبط الكلام نفسه ، ولو بطريقة غير مباشرة ، بتطور الجهاز العصبي المركزي وبخاصة القشرة المخية لاسيما الفصان الجبهيّان ، وبتطور الحواس لاسيما السمع والبصر ، وانتصاب القامة وتطور القدمين وبخاصة موقع الإبهام بالنسبة لأصابع اليد الأخرى واتساع وظائفه ، وهي ظواهر اجتماعية تاريخية النشأة وإن كانت جسيمة التركب[٢٩] ، ومن الجدير بالذكر إن ظهور اللغة عند الانسان أدى إلى حدوث تطور لاحق في أجهزة الجسم المتعلقة به ، إذ أن نشوء الكلام البيّن الواضح أو المنمق كان عاملاً في تطور عضلات الوجه وتعبيراته أو قسماته[٣٠].

المبحث الثالث

الموقف من المعنى

يعد المعنى أكثر الأشياء جدلاً على مستوى النظرية اللغوية ، أو على مستوى النظرية الصوتية ، وظلت العلاقة بين اللفظ والمعنى تأخذ أشكالاً كثيرة ، فمرة علـــى شكل دال ومدلول ، ومرة على شكل صورة حسية مادية ، وصورة ذهنية. ومرة علـــى شكل اللغة والفكر ، كما أن العلاقة بينهما فُسرت أكثر مـــن تفسير ، بين الطبيعيّـــة والاعتباطيـــة

---

(٢٩) ينظر اللغة والفكر/٦٢.

(٣٠)نفسه: ٦٢.

والوضعية. أما النظرية الفسلجية فأنها تنظر إلى العلاقة بين اللفظ والمعنى مـــن زاويتين ، الأولى من زاوية العلامات والإشارات ، والثانية من زاوية اللغة والفكر. أما العلامات والإشارات والرموز ، فهي تؤلف ما يسمى بالمنظومة الإشارية التي ينفرد بها الانسان وحده. فالكلمات المنطوقة أو المكتوبة إشارات حسية تدل على الاشياء المادية التي انطلقت منها وبمرور الزمن أخذت تعبر عن جميع الإشارات الحسية ، وتحل محلها وتستثير الأستجابات الفسلجية التي ستثيرها مسمياتها أي أن الألفاظ اللغوية تعبر عن نفسها على شكل رموز صوتية مكتوبة ، أوجدها الانسان نفسه في مجرى تاريخه الطويل لتنظيم حياته الاجتماعية ، أي أن قيمتها الصوتية والسمعية تكمن فـــي معناها أو دلالتها أو ما تشير إليه ، لا في كيانها الرمزي المادي المطوق به أو المقروء[٣١]. إذ أن هذا المفهوم قد تردد في كتابة اللغة والفكر أكثر من مرة. يقول الدكتور نوري جعفر (لاشك في أن الكلمة ، المتحدث بها والمكتوبة ، هي اكثر من مجرد شيء مادي محسوس (صوت نسمعه أو رمز مدون نقرأه) فهي بالاضافة إلى ذلك وبالدرجة الأولى والأهم تحمل معنى معيناً متفقاً عليه ، ترمز إلـــى الشيء ، أو تدل عليه ، أو تعبر عنه ، أو تشير إليه ، إن الانسان يستجيب لهذا المعنى ، وليس للصوت ، أو الرمز المكتوب في حد ذاته[٣٢]. ويدلل الدكتور على صحة هذا القول باجراء مختبري اجري على الكلمات المترادفة (اصوات مختلفة ورموز مكتوبة مختلفة والمعنى واحد) فأن الأستجابة تكون للمعنى وليس للصوت أو الرمز.

---

(٣١) اللغة والفكر/٥٦.

(٣٢) اللغة والفكر/٧٨.

إذ يقول (وفي حالة تعبير عدة كلمات ذات اصوات مختلفة ورموز مكتوبة متعددة عن معنى واحد فأن الأستجابة نفسها تحدث في جميع الأحوال ، وقد ثبت ذلك مختبرياً ، فعندما أصبحت كلمة **(Bath)** الانكليزية في أحدى التجارب منبهاً شرطياً تستثير استجابة شرطية ثم استبدلت بكلمة أخرى تحمل المعنى نفسه ولكنها تختلف عنها تلفظاً وكتابة مثل كلمة **(Road)** أو كلمة **(Street)** فأن الأستجابة أزاءها لم تتبدل .. وهذا هو الذي تفتقر إليه الحيوانات الراقية ، (والببغاء) التي تتدرب على سماع بعض الكلمات والاستجابة لها ، وذلك لأن الكلمة عندها تبقى مجرد صوت **(Sound)** أعجم لاتفقه معناه اللغوي ولاتستجيب إلا له وإذ تغير استحالت عليها الاستجابة له[٣٣].

ويقول في موضع آخر موازناً بين استجابة الحيوان واستجابة الانسان للالفاظ والكلمات ، (فالكلب المدرب علــى الجلوس عند سماعه كلمة **(Place)** الانكليزية يجلس ايضاً عند سماع كلمــة **race** ، **case** ، **space** ، **brace** ذات الأصوات المتشابهة وانْ أختلف معناها ، كما أن لا يجلس مطلقاً عند سماعه كلمة **(sit)** مثلاً ، لأنها تختلف في الصوت وأنْ تشابهتْ في المعنى ... في حين أن الوضع يختلف اختلافاً جذرياً عند الانسان ... أي أنه يستجيب استجابــة مماثــلة لكلمات مماثلة المعنى ، وإن اختلفت أصواتها ، ويصدق الشيء نفسه على الكلمات المكتوبة أيضاً التي ينقلها المحلل البصري كما يصدق على الكلمات التي ينقلها المحلل اللمسي (عند العميان الذي يقرؤون باللمس) .. وهذا كله يدل علــى أن الشيء الحاسم عند الانسان فــي مسألة اللغة ، هــو

---

(٣٣) نفسه:٧٨.

المحتوى أو المعنى الذي تحمله الإشارة اللفظية المنطوق بها أو المكتوبة [٣٤]. أما ما يخص اللغة والفكر ، فأن العلاقة بين اللفظ والمعنى تكتسب منحى جدلياً (وقد ثبت بشكل لا يقبل الجدل أو الشك أن الشخص الذي يقوم بعمل عقلي معين مثل حل مسألة رياضية أو تذكر بيت شعري يتحدث أيضاً مع نفسه من دون أن ينطق بالكلام الجهوري معنى هذا أن العمليات الذهنية تصاحبها دائماً اشارات معينة في أعضاء الكلام وفي جهاز التنفس عموماً بمقدار ارتباطه بالتلفظ وبخاصة في الحنجرة ، وسقف الفم ، وباللسان والشفتين ، وهذا يدل على أنه لا يمكن حدوث عملية التفكير من دون الكلام ... أي أن الفكر لا يصبح واقعاً محسوساً قابلاً للصوغ والتداول إلا عبر الكلمات ، وانه بدون اللغة يصبح خامداً غير قابل للتداول)[٣٥]. ولما كانت الألفاظ (المنطوقة أو المكتوبة) ظواهر مادية محسوسة فأن معانيها أو الأفكار التي تحملها أو الصور الذهنية التي تعبر عنها أو تشير إليها أو تدل عليها ظواهر لا مادية. يقول الدكتور نوري (إن الكلمات تفقد جوهرها إذا اعتبرناها مجرد أصوات أو رموز مكتوبة لأن اهميتها الفكرية تكمن في أنها تنقل ذهن السامع أو القارىء إلى أشياء أخرى تختلف عن وجودها المادي المحسوس ، فالفكر إذن يأخذ منطلقه من معاني الكلمات)[٣٦]. ولذلك ينكر الدكتور نوري فكرة عزل الصوت ، أو الرمز المكتوب عن المعنى ، لأن ذلك يخل بالوظيفة الجوهرية للكلام وهي الاتصال الفكري ، إذ يقول (لأن هذا التبضيع يعزل الوظيفة الأجتماعية للغة

---

(٣٤) نفسه: ٨١.

(٣٥) اللغة والفكر/١٠٤-١٠٦.

(٣٦) نفسه: ١٢٣.

مـن حيث هي أداة الأتصال الفكري بين أفراد المجتمع ، عن وظيفتها الفكرية الملتحمة بوظيفة الأتصال الأجتماعي ، ويفكك عرى الروابط العضوية النشوئية أو التطورية التي نشأت بينهما)[٣٧]. وقد نتج عن هذا العزل ، المبدأ اللغوي المغلوط الذي يرى أن علم الأصوات علم مستقل عن علم المعاني ، إلا أن المعنى يعد ظاهرة لغوية تعبيرية لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيئة تجريد وتعميم تحملها الأصوات والرموز المكتوبة ، أي المعنى من هذه الناحية عملية فكرية دون منازع[٣٨]. ثم يوضح ذلك معتمداً على قول العالم الروسي مايكونزكي الذي يشبه اللغة والفكر بدائرتين متقاطعتين يطلق على مناطق التقاطع اسم الفكر اللفظيّ أو الفكر المعبّر عنه بالألفاظ. أي لأبد لوجوده من كلمات تحمله وتسمح له بابراز نفسه[٣٩]. ولإتمام الفائدة أذكر هنا التعريفات التي وردت مبثوثة فـي كتاب اللغة والفكر هنا وهناك ، لبعض المصطلحات اللغوية ، مثل الكلمة والمعنى:

أولاً الكلمة:

١- أما الكلمة من حيث هي رسم مكتوب أو صوت منطوق به فهي ظاهرة لغوية إذا نظرنا لها من حيث كونها الأداة الإجتماعية التي تحمل الفكر وتجسده.

٢- فالكلمة إذن كيان واحد متماسك فكري وأداة في الوقت نفسه تعبر عن الفكر على هيئة صوت ورموز مكتوبة أي أن الكلمة بالتعبير الكيمياوي جُزيء اللغة.

---

(٣٧) نفسه: ١٢٣.

(٣٨) نفسه: ١٣٨.

(٣٩) نفسه: ١٣٨.

٣- الكلمة تجريد وتعميم من حيث معناها. أي أن المعنى جزء لايتجزأ من الكلمة.

٤- فالكلمة فكر ملتحم بالصوت يشير إليه ورمز مكتوب يدل عليه.

٥- ليست الكلمة المنطوق بها إشارة سمعية أو صوتية ، بل هي إشارة لفظية أو كلامية ، أو لغوية تجريدية ، إنها مجردة من الشيء المحسوس الذي تشير إليه أي أنها تعبير عن معنى مجرد نقي.

٦- الكلمة بالتعبير الفسلجي تصبح منبهاً متفوقاً ، أي أنها تنظم خبرة الانسان المباشرة إذ يكون دورها في نشوء العمليات العقلية العليا بالغ الأهمية ، إن باستطاعة الكلمة التغلب على نشاط المنظومة الحسية الإشارية ، وإبطال مفعولها وعلى هذا الأساس يصبح بإمكان اللغة أن تطمس آثار جميع الدوافع البيولوجية الفطرية عند الانسان أو تبطل مفعولها أو تحولها إلى نقيضها ، وهذا هو الذي يجعل مفعول الكلمة يتغلغل عميقاً في مشاعر الانسان.

٧- إن الكلمة المنطوق بها أو المكتوب هي بالدرجة الأولى والأهم عند الانسان إشارة مجردة لفظية إلى شيء آخر بصرف النظر عن الصوت الذي تحمله أو الصورة الكتابية التي تنطوي عليها(٤٠).

ثانياً: المعنى

١- المعنى ظاهرة لغوية وفكرية في آن واحد.

٢- المعنى ظاهرة لغوية تعبيرية ، لأنه يعبر عن الصورة الذهنية على هيئة تجريد وتعميم.

٣- المعنى عملية فكرية دون منازع.

---

(٤٠) نفسه: ٨١.

٤- إن الشيء الحاسم عند الانسان في مسألة اللغة هو المحتوى أو المعنى الذي تحمله الإشارة اللفظية المنطوق بها أو المكتوبة.

٥- الشيء المهم في جميع الإشارات والعلامات بما فيها الكلمات معناها وليس كيانها المادي الحسي (الأصوات أو الرموز الكتابية).

المبحث الرابـــع

شيء من جهوده التربوية

يعد الدكتور نوري جعفر من علماء التربية الذي لهم آراؤهم الخاصة والجريئة في حقلي التعليم والتربية ، فقد رفض رفضاً شديداً المبدأ اللاعلمي واللاإنساني ـــ على حد تعبيره ـــ الذي يحصر العلم والثقافة في أقلية ضئيلة من الناس (الصفوة) ويصد جماهير الشعب عن التمتع بها ، كما ردّ نظرية الذكاء الفطري وعدّها من قبيل الهراء كما استنكر اختبارات الذكاء على نحو تجريدي منعزل ، بعيداً عن السلوك اليومي والظروف الاجتماعية والثقافية والعلاقات البيئية ، وأكد باصرار أن الأصالة والأبتكار يمكن أن تتحقق على مستوى الفرد والشعوب ، إذا ما تهيأت الظروف الأجتماعية الملائمة ، ولهذا رفض الرأي القائل بتقسيم البشر إلـــى شعوب راقية ، وأخرى بدائية ، قد عد إلحاح نظام التعليم السائد على ضرورة تفوق الطالب في جميع الدروس ـــ مـــن الرسم حتى الرياضيات ـــ ضرباً مـــن ضروب التعجيز ، وقـــد ربط الكثير مـــن الظواهر التربويـــة فـــي حقلي التعليم والابتكار ، بالوظائف المخية والدماغية وعلّل قسماً كبيراً منها تعليلاً فسلجياً مقنعاً ، وسيعرض البحث لبعض جهوده التربوية وآرائه العلمية:

١- يشخص الدكتور نوري مسألة تربوية تعليمية تعد في غاية الأهمية في تنمية قدرات التلاميذ. إذ أن هذه المسألة لها أبعاد كثيرة منها ، ما يتصل بالطريقة ومنها ما يتصل بالمنهج ، ومنها ما يتصل بنظام التعليم نفسه ، أما الطريقة أو أسلوب التدريس ، فيرى أنه مبني على التلقين والتكرار المخل ، وعلى الحفظ من دون فهم في الغالب ، فضلاً عن جمود المواد الدراسية وعقم أساليب تدريسها إذ أنها لا تتحول إلى جزء من كيان التلميذ الفكري ومقوماته الثقافية كما يتحول الطعام في عملية تمثيله في الجسم فيغذيه وينميه ، بل تبقى المواد التي يدرسها عائمة على سطح الدماغ الذي لا يلبث أن يجترها ليقذفها إلى الخارج في أثناء الأمتحان.

يقول الدكتور: لقد أدى عقم مناهج الدراسة وسوء اساليب التدريس والإدارة المدرسية المتزمتة وموقف الأسرة اللامسؤول بطائفة كبيرة من ألمع رجال الفكر في الرياضيات ، والعلوم الطبيعية النظرية ، والتكنولوجية وفي الأدب ، والفن والسياسة إلى الفشل الذريع في دراستهم حتى في موضوعات تخصصهم التي برعوا فيها بعد ذلك بجهودهم الخاصة ، فقد فشل فشلاً ذريعاً في دراسته منذ مرحلة التعليم الابتدائي وأتهم بالبلادة كل من اديسون ، آينشتاين ، باستور ، ونيوتن(٤١). ويرى أن المعلومة التي تقدم إلى التلميذ يجب أن تكون مستوفاة لشروطها التربوية ، إذ أن من شروطها:

١- ألا تفرض بالقسر والأكراه ، لإنها تصبح معرضة للنسيان بسهولة وبسرعة كما أنها تستثير الأمتعاض ، والمقت وقد تُبلّد الذهن وتذوي

---

(٤١) الأصالة في مجال العلم والفن/٦٨.

الخيال والأبتكار ولا تشجع التلاميذ على بذل مزيد من الجهد لأكتساب مزيد من المعرفة في كثير من الأحيان.

٢- أن تبتعد عن الصفة التفصيلية غير ذات القيمة العلمية التي تؤثر في تنمية قدرات التلاميذ العقلية ، يقول الدكتور (من الملاحظ اننا في التعليم – نهتم أكثر من اللزوم – وبخاصة في مراحل الدراسة التي تسبق الدراسة الجامعية في جميع العلوم الانسانية بصورة خاصة – بتحفيظ التلاميذ معلومات كثيرة تفصيلية ومعرضة للنسيان .. والمعلم الذي يركز اهتمامه بالدرجة الأولى على الحفظ النصي في هذا الباب ويكتفي به ، أو يقف عنده يفوت فرصة تعليم التلاميذ ما هو أهم بنظرنا من حفظ قصيدة معقدة لأمرىء القيس ، مثلاً ، أو المتنبي ، أو الجواهري ، أو من الشعر الحديث ، وهو تذوق القصيدة والأنفعال بمضمونها الاجتماعي وبناحيتيها الفنية والجمالية التي تجعل حسه الادبي مرهفاً ويصدقُ الشيء نفسه بالشخصية التاريخية الفذة التي يهتم المدرس بحفظ تاريخ ولادتها ووفاتها وبحفظ حقائق عن سيرتها[٤٢].

٣- في مراحل التعليم الأولى لابد من السير خطوة خطوة بكل تلميذ على أنفراد من التعامل بالأشياء المحسوسة إلى التعامل مع صورها الحسية الذهنية البصرية وصولاً في آخر الأمر إلى التعامل بالمجردات والرموز والمعادلات الرياضية. أما بشأن اللغة فيرى الدكتور ضرورة توفر البيئة اللغوية الطبيعية في تعلم اللغة في سن مبكرة ، إذ يقول: ويعزى نجاح هذه الطريقة في تعلم اللغة إلى عاملين ، أحدهما فسلجي:

---

(٤٢) الأصالة /٦٩.

والآخر سيكولوجي. أي أن طبيعة دماغ الطفل مستعدة فسلجياً لتعلم اللغة إذ إن ذلك يعني تعلم الحياة وتبادل الخبرة وإشباع الحاجات.

ولأهمية اللغة تربوياً يعرض الدكتور ، لبعض المظاهر اللغوية التي تكون ذات أثر خطر في حياة المتعلم ، ولاسيما الألفاظ والتعبيرات الأنفعالية والإيحاء اللفظي ، إذ ثبت ارتباطها فسلجياً بقشرة المخ اللغوية ، إذ ترتبط التعبيرات الأنفعالية عند الانسان كما يرتبط محتواها الاجتماعي ارتباطاً وثيقاً باللغة التي لولاها لأستحال تجسيد العواطف ، أو تبلورها .. وقد ثبت أن للكلمات أثراً فسلجياً عميقاً في حياة الانسان الانفعالية ، من الناحيتين الايجابية أو السلبية. فالكلمات الجارحة تؤذي القشرة المخية عند كثير من الطلبة ، لاسيما ذوي نمط الجهاز الضعيف ، والقوي غير المتزن ونمط الفنانين ، وتزداد حدة هذا الإيذاء في أوقات الامتحانات ، ويحدث العكس عند توجيه الكلمات الرقيقة التي تبعث الثقة بالنفس(٤٣). وإلى ذلك ينبه الدكتور نوري المربين ، معلمين ومدرسين إلى ضرورة أن يأخذوا بنظر الاعتبار الحالات الانفعالية التي يمر بها الطلبة ، ولاسيما في الأوقات العصيبة التي تشمل اوقات الامتحانات بنوعيها الشفوي والتحريري ، أو عند تعرض التلميذ إلى موقف محرج مثل الأستدعاء إلى السبورة أو توجيه أسئلة فيها شيء من الصعوبة فأن ذلك قد يؤدي إلى اصابتهم بالاضطرابات العصبية ، أو إلى تبلدهم ، ولاسيما إذا رافق ذلك تأنيب ، أو إزدراء يوجهه المعلم والمدرس. ويبدو من مناقشته للظواهر التربوية عامة والتعليمية خاصة. أنه يؤكد على نحو كبير ، الجانب الاجتماعي والبيئة الثقافية التي يعيش فيها الانسان عموماً والتلميذ بوجه

---

(٤٣) اللغة والفكر/١٦٠.

خاص ، إذ يقول: إن طبيعة الانسان بعد التحليل الدقيق ثمرة تفاعل وأثر متبادل بين عوامل ثلاثة متلاحمة غير قابلة للعزل إلا لأغراض الدراسة النظرية وهذه العوامل هي:

١- البيئة الاجتماعية الكبرى: وهي البيئة التي يتعرض لتأثيرها بدرجات مختلفة جميع افراد المجتمع.

٢- البيئة الاجتماعية الصغرى أو المباشرة أو الخاصة وتشمل الأسرة أو المدرسة وجميع الظواهر الاجتماعية التي تدخل في النشاط اليومي المعتاد ، إذ من خلالها يحصل التفاعل بين مقومات الفرد السيكولوجية الخاصة ، وخبرته وميوله.

٣- مقوماته الفسلجية وهي المناطق المخية الثلاثة ، أي أن البيئة الاجتماعية ــ كما يقول الدكتور نوري جعفر ــ حررت الانسان من الخضوع خضوعاً تاماً ومطلقاً لقانون التطور البايلوجي ومبدأ الانتخاب الطبيعي وظاهرة الصراع من أجل البقاء .. وهي التي نقلته إلى مستوى أعلى(٤٤).

يربط الدكتور نوري ، تطور الانسان بالقدرات العقلية التي هي حصيلة عمليتي تطور عقلي مختلفتين هما: عملية التطور الدماغي التي يتعرض لها الفرد بين الطفولة والرشد ، والأخرى عملية التطور الاجتماعي الثقافي التي من خلالها يتحول الفرد إلى راشد متعلم ، ويبدو أن العمليتين تكمل احدهما الأخرى ، أي أنهما غير منفصلتين. ويلفت نظر المربين والمعلمين إلى أن الجانب الأنفعالي له أثر فعال في حياة الفرد وتعلمه ، إذ أن دماغ الانسان

---

(٤٤) الأصالة /٨٣.

الذي يعد أداة السلوك المادية الجسيمة يقابل العوامل البيئية الايجابية بعملية اقدام ، أو إثارة أو نشاط يقابل نقيضها بعمليـــة انكمـــاش أو انسحاب أو كف ، أو توقف عـــن العمل ، وفي حقل التعليم تبـــدو المسألة ذات خطر كبير ، فالكلمات الجارحة تؤذي المخ وتزداد حدة هـــذا الأيذاء في أوقات الامتحانات ، إذ يؤدي ذلك في النهاية إلـــى مقت الدرس والمدرس وربما المدرسة والمجتمع فضلاً عن التقاعس في بذل الجهد الفكري وفقدان الثقة بالنفس(٤٥).

---

(٤٥) نفسه: ٩٤.

الخاتمـــة

إن جهود الدكتور نوري جعفر وآراءه في تفسير نشأة اللغة البشرية فسلجياً يندرج تحت فرع من فروع اللسانيات ، يسمى علم اللسانيات البايلوجي القائم على الكشف عن العلاقة بين الوظائف اللغوية والوظائف المخية أو الدماغية ، إذ أن هذا الكشف يفتح أبواباً واسعة لتفسير كثير من الظواهر اللغوية عند الانسان منذ الطفولة. ووضع الحلول المناسبة لها ولاسيما في حقلي التربية والتعليم. إن هذا الفرع من اللسانيات تفتقر إليه مؤسساتنا التربوية والتعليمية واللغوية. إن التفسير الفسلجي لنشأة اللغة البشرية وقدرة الانسان على الكلام من خلال التطورات التي حدثت في اعضاء النطق المختلفة وكذلك التطورات المخية التي حدثت في قشرة الدماغ ولاسيما في المناطق المسؤولة عن الوظائف اللغوية ، صوتاً ، وإشارات ، وعلامات ، وكذلك العلاقة بين المنظومة الإشارية الأولى ، المسؤولة عــن الحواس ، والمنظومة الإشارية الثانية المسؤولة عن اللغة ، التي ينفرد بها الانسان. كل ذلك يجعل النظرية الفسلجية أكثر إقناعاً وعلمية من النظريات اللغوية والصوتية التي تناولت موضوع نشأة اللغة وموضوع الأصوات اللغوية.

إن ما توصلت إليه هذه النظرية جدير بالدراسة والبحث ولاسيما في حقل الدراسات اللغوية في مرحلة الدراسات العليا.

المراجـــع

١- الأصالة في مجال العلم والفن ، الدكتور نوري جعفر ، وزارة الثقافة والأعلام ، ١٩٧٩.

٢- محاضرات في الصوت والمعنى ، رومان ياكوبسون ، ترجمة منى ناظم وعلي حاكم صالح ، ط١ ، ١٩٩٤ ، بيروت.

٣- دراسة الصوت اللغـــوي ، د. أحمد مختار عمر ، ط١ ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٦.

٤- دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح ، ط٥ دار العلم ، بيروت.

٥- علم الأصوات ، د. كمال بشر ، دار غريب ، القاهرة ، ٢٠٠٠.

٦- فقه اللغة ، د. عبد الحسين مبارك ، البصرة ، ١٩٨٦.

٧- فقه اللغة في الكتب العربية ، عبده الراجحي ، بيروت ، ١٩٧٩.

٨- في علم اللغة العام، د. عبد الصبور شاهين،ط ٣، بيروت،١٩٨٠.

٩- اللغة والفكر، د. نوري جعفر ، الرباط ، ١٩٧١.

١٠- اللغة والنحو ، د. حسن عون ، ط١ ، الاسكندرية ، ١٩٥٢.

١١- نظريات في اللغة ، انيس فريحة ، ط١ ، بيروت ، ١٩٧٣.

١٢- مسودة بحث للدكتور عبد الكريم راضي جعفر ، ٢٠٠٤.

١٣- وقائع مؤتمر اللسانيات ، الرباط ، ١٩٨٣.